محاسبة النفس عند الصوفية

للأستاذ محمد عيد الشافعى

أمهات الرذائل ثلاثة . الشهوة والغفلة والمعصية . وأمهات الفضائل ثلاثة . اليقظة والعفة والطاعة . وللرذيلة أصل وللفضيلة أصل. الأصل لكل رذيلة فى النفس الرضا منك عنها والأصل لكل فضيلة فى النفس عدم الرضا منك عنها . الرضا منك عن نفسك يتبع النفس هواها وعدم الرضا منك عن نفسك يتبعها ما أمر به مولاها . وقال صلى الله عليه وسلم « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والأحمق من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمانى » وقد أمرنا الحق تبارك وتعالى بمحاسبة أنفسنا قبل القدوم عليه فقال (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ماقدمت لغد واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الخاسرون) فمن حاسب نفسه قبل الحساب فقد ربح ومن ترك نفسه وهواها فقد خسر لذلك كانت المحاسبة للنفس من الأمور المطلوبة للسالك فى طريق الله وقد دلنا الحق تبارك وتعالى على طريق النجاة بقوله (يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم . تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم) والمجاهدة فى الله بعد الفتح هى مجاهدة النفس بعدم تركها لهواها وذلك لايكون إلا بالمحاسبة ، وبقليل من التدبر فى هذه الآية الكريمة التى بينت لنا طريق النجاة يتبين لنا أن هناك معاملة بين العبد وربه اعتبرها الحق متاجرة بينه وبين خلقه . ورأس مال هذه المتاجرة هو التقوى . والعقل الناقد البصير فى الانسان هو المتجر بتقوى الله مع الله من وجه . ومع النفس فى المرء من وجه آخر . أما الحق تبارك وتعالى فهو العميل المشترى قال تعالى (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة) وقال تعالى (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها) وأما النفس . فهى الشريك العامل فى

هذه التجارة أى فى رأس المال. وأول واجب على العقل أن يكون محافظاً كل المحافظة على ماله إذ أن هذا المال للعقل إنما هو فى الحقيقة بمثابه الروح له ففى خسارته خسرانه. كما أن واجب النفس وهى الشريك العامل أن تجد فى استثمار رأس المال مع المحافظة عليه من كل آفة حتى ينمو ويتحقق لها وللعقل الربح وإلا حقت لهما الخسارة معاً. فاجتهاد النفس فى العمل زيادة رأس المال ونموه. واجتهادها فى الطاعة. والمحافظة على رأس المال من كل آفة. هى اتقان العمل وبراءته من كل شائبة للشيطان والهوى حتى يكون العمل خالصاً لله تعالى ليس فيه لغيره شريك وإلا ردت السلعة إذ أن ذلك هو شرط العميل المشترى كما نص على ذلك بقوله (وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء) وقوله جل شأنه (أنا أغنى الأغنياء عن الشركة فمن عمل عملا أشرك معى فيه غيرى فهو له، وإرجاع السلعة خسارة فى رأس المال. ثم إن أخلصت النفس فى العمل ولكنها تكاسلت عن أدائه فى حدود ما أمر الله تنج لا شك عن ذلك خسارة. فى رأس المال كذلك إذ أن الوقت جزء منه وقيمته لا تعوض ولا ترد بفواته وصاحب المال مع الشريك العامل لا يخلو من أحوال أربعة. إما أن يكون راضياً عنه كل الرضا فلا يراقبه ولا يؤثر عليه ماله ويتركه يفعل ما يشاء - وإما أن يحسن الظن به مع المراقبة — وإما أن لا يحسن به الظن بل يكون منه على حذر — وإما أن يقف منه موقف المتهم دواماً حرصاً منه على سلامة المال ودوام الخير للشريكين معاً — إن كان الأول فالخسارة لاشك محققة لا الكسب لأن النفس تميل مع الهوى بطبيعتها وما فيها من شهوة — وحفت النار بالشهوات كما قال صلوات الله عليه — وإن كان الثانى. فالمراقبة مع حسن الظن سبيل للخدعة - وإن كان الثالث فقد يستطيع المحافظة على سلامة ماله مادام على حذر فان وقعت الغفلة كان التفريط بعض الشىء. أما إذا وقف منه موقف المتهم لما ثبت عنده من طبيعة الشريك ومكره، وعدائه له بسبب الجهل فيه وانه لا يعلم ما فيه مصلحته ومصلحة شريكه، ثم سن له من أنواع العقوبات والتعذير ما يقوم به اعوجاجه ويجعله أميناً مجداً فقد سلم العمل ونمت الثروة وحققت الأرباح وكانا معاً من الفائزين على هذا المنهج وهذه العقيدة سلك

السلف الصالح والكمل من الصوفية رضوان الله عليهم متمثلين قول الرسول صلى الله عليه وسلم ، « أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك » فما عملوا عملا صالحاً إلا وكانوا متهمين لأنفسهم فيه بل كانوا فيه على وجل قال تعالى (الذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة) ولقد ثبت من ذلك الكثير عن أجلة الصحابة المبشرين من الصادق الأمين صلوات الله عليه . والصالحين من الصوفية فما يروى من ذلك . أى فى محاسبتهم لأنفسهم وإلزامها بما يعوض الخسارة الناتجة عن تقصيرها على سبيل الزجر والعقوبة تارة . وحرصاً منهم على سلامة العمل وزيادة التقوى والطاعة تارة أخرى أو هما معاً — ما روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه فاتته صلاة العصر جماعة . فتصدق بأرض كانت له قيمتها مائتا ألف درهم . وما روى عن أبى طلحة رضى الله عنه أنه كان يصلى أمام بستانه فشغله طائر فيه عن الحضور فى الصلاة فلم يدر كم صلى .. فتصدق بالبستان تكفيراً لما فرطت فيه نفسه . وما روى عن ابن عمر رضى الله عنه أنه فاتته صلاة الجماعة فى فريضة أحيا تلك الليلة . وأخر مرة صلاة المغرب حتى طلع كوكبان فأعتق رقبتين . وفات ابن أبى ربيعة ركعتا الفجر فاعتق رقبة وكل ذلك لا شك استناداً على قول الله تعالى (إن الحسنات يذهبن السيئات) وقوله صلى الله عليه وسلم « اتق الله حيث ما كنت . واتبع السيئة الحسنة تمحها . وخالق الناس بخلق حسن » هذا فى الألزام للنفس بتعويض ما فرطت فيه من واجب أما اجتهاد النفس فى زيادة الخير والطاعة . فانظر أيها السيد الكريم وفقنى الله وإياك إلى ما فيه الرشد أنظر إلى قول أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه حيث يقول أحد أصحابه .

صليت خلف على رضى الله عنه صلاة الفجر . فلما سلم انفتل عن يمينه وعليه كآبة فمكث حتى طلعت الشمس ثم قلب يده وقال والله لقد رأيت أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم وما أرى اليوم شيئاً يشبههم . كانوا يصبحون شعثاً غبرا صفرا . فقد باتوا لله سجدا وقياماً يتلون كتاب الله يتراوحون بين أقدامهم وجباههم وكانوا إذا ذكروا الله حادوا كما يحيد الشجر فى يوم الريح وهملت أعينهم حتى تبل ثيابهم وكأن القوم قد باتو غافلين يعنى من كان حوله . ودخل قوم على عمر بن

عبد العزيز يعودونه فى مرضه وإذا فيهم شاب ناحل الجسم فقال عمر له يا فتى ، ما الذى بلغ بك ما أرى ؟ فقال يا أمير المؤمنين أسقام وأمراض فقال سألتك بالله ألا صدقتنى . فقال يا أمير المؤمنين . ذقت حلاوة الدنيا فوجدتها مرة فصغر عندى زهرتها وحلاوتها واستوى عندى ذهبها وحجرها وكأنى أنظر إلى عرش ربى بارزا والناس يساقون إلى الجنة والنار فاظمأت لذلك نهارى وأسهرت ليلى وقليل حقير كل ما أنا فيه فى جنب ثواب الله وعقابه . ويقول الحسن رضى الله عنه أدركت أقواماً وصحبت طوائف منهم ما كانوا يفرحون بشىء من الدنيا أقبل ولا يتأسفون على شىء منها أدبر ولهى كانت أهون فى أعينهم من هذا التراب الذى تطؤنه بأرجلكم إذ كان أحدهم يعيش عمره كله ما يطوى له ثوب ولا يأمر أهله بصنعة طعام قط وأدركتهم عاملين بكتاب ربهم وسنة نبيهم . إذا جنهم الليل فقيام على أطرافهم يفترشون وجوههم . تجرى دموعهم على خدودهم يناجون ربهم فى فكاك رقابهم إذا عملوا الحسنة فرحوا بها ودأبوا على شكرها وسألوا الله أن يتقبلها . وإذا عملوا السيئة أحزنتهم وسألوا الله أن يغفرها لهم ووالله ما زالوا كذلك وعلى ذلك وما سلموا من الذنوب ولانجوا إلا بالمغفرة

يقول الجنيد رضى الله عنه ما رأيت أعبد من السرى أتت عليه ثمان وتسعون سنة ما رؤى مضطجعاً إلا فى علة الموت . وما ورد فى ذلك كثير وأجل من أن يحصى أو يحاط به وما نالوا ذلك الخير فى الحقيقة إلا بمحاسبتهم لأنفسهم وعدم الرضا عنها ورضى الله عن سيدتنا عائشة حيث أجابت حينما سئلت متى يكون الرجل مسيئاً ؟ فقالت إذا ظن أنه محسن هدانا الله إلى الخير وألهمنا الرشد والتوفيق سبحانه .

محمد عبد الشافعى

وكيل المشيخة

عن مركز شبرا خيت

نشرنا فى العدد الأسبق أن الشيخ عبد الجليل الزينى . هو وكيل المشيخة العامة عن مركز شبرا خيت . وصحة أن سيادته وكيلا عن مركز الدلنجات . وأما وكيل المشيخة عن مركز شبرا خيت . فهو الشيخ اسماعيل محمد خضر .